

# مقابلة أدبيّة مع :

## توفيق يوسف عواد

بقلم عفيف فراج

جاء توفيق عواد بعيد منتصف الثلاثينات جواباً على سؤالين انظرهما على الساحتين الاجتماعية والادبية .

كان التراث الادبي يسأل : حتى متى ينتظر ادبنا المحلي والعربي لحظة الوصال مع القصة والرواية باعتبارهما شكلين ادبيين ازهرا فوق غصون الحضارة الجديدة على مدى قرون ؟

وكان الواقع الاجتماعي التاريخي يسأل : الى متى ينتظر مخاض الجوع والاسم الذي لف شعبنا تحت المظلة التركية خلال الحرب العالمية الاولى ؟ الى متى ينتظر القلم الذي يستنطقه ويستوحيه ليخلد الذين ماتوا نكرات بلا اسماء او اكفان فوق كل الدروب والازقة وفي عتمة الاكواخ التي سرق منها الرغيف ؟. كان الواقع ينتظر القادم الذي يعطي الجراح السنة تردد اصداء الكرامة التي ناحت والحريات التي شنقت ..

وقد اجاب توفيق عواد على السؤالين بمجموعة « الصبي الاعرج (1) القصصية ثم برواية « الرغيف » ..

في مقدمته لـ « الصبي الاعرج » حس بالرهبة يعترى كسل من يقتحم ساحة عدراء غير ماهولة بمسد ... فقد كانت الشجاعة والمغامرة والخلق موضع اتهام دائم من الفكر التقليدي والسلفي الذي قنع من رحابة الكون بصدفة زمنية مقلقة ، ومن تاريخ الحضارة الانسانية الفسيح باحدى لحظاتها الساطعة .

« ان اشتغلت بالقصة على ما يفهمها الادب العالمي اليوم ، فلا يعني ذلك انني اقلد ، بل امد يدي الى مائدة انا مدعو اليها ، وكل اديب عربي مدعو معي الى طياتها » .

كان توفيق عواد من الذين بكروا في ادراك حقيقة انه ليس هناك من حضارة تخصب ما لم تتفاعل وتمد يدها للمائدة الحضارية المترامية فوق شتى ارجاء المهورة ، وان تركزت في احدى المراحل التاريخية في رقعة جغرافية محددة .

لقد مد القرب يده في عصر النهضة ليأخذ ضمن ما اخذ - من مائدة « الف ايلة ولباة » ويوصل فن القصة . وقد بدأ توفيق عواد عملية تاصيل هذا الفن الذي لم يكن قد تاصل في ادبنا بعد ..

وقد احتوت مجموعة « الصبي الاعرج » وخاصة قصتي « الجرلون الشتوي » و « حنون » جنين المجاعة الذي تعلق في رواية

« الرغيف » تلك الرواية اللبنانية وربما (2) العربية الاولى التي تبقى نصا تاريخيا وفنيا جميلا لرحلة لم يكن الجمال ابرز سماتها قطعا .

ثم اختفى توفيق عواد .. سكن الكهف المعزول وسكت مدة فاربت الربع قرن وحين التقى بالكلمة من جديد كان اللقاء عاطفيا . يضمها في مقدمة « السائح والترجمان » (3) ويعترف بعشق لا يساوم :

« ان طيفك لم يفادرنى . كان يأكل من صحنى وينام على مخدتي وكان يأخذ بخناقى بحضرة الملوك يقولون لي : انحن ! فيصيح في عيني : لغيرها ما انحنيت ولن افعل » .

ولا ريب ان ملوك الفكر والصحافة والسياسة افسدوا ما بينه وبين الكلمة . فزين له الذين انتهكوا حرمة الكلمة الصمت فصمت يحس « الحياة جثة مشلوحه على كتفيه » ولا ريب ان رائحة عفن تسربت من دائرة وجوده وغشيت حواسه . فالبراءة تنوح في كل ما كتب .

مرغوا في الهواء حسنك لما

حدهم منك في الهوى عصيان

جرحوا شوهوا استباحوا وراحوا

وكذا فعل عجزها الخصيان (4)

ان لارتداد الكاتب المنعور عن عالم الواقع اسبابا تتجاوز الذات وتتصل بالواقع الذي ينشد اليه الكاتب الذي لا يضاجع ذاته باسلاك المصعب ... وهذا لا يعني ان العنصر الذاتي لم يكن له كلمة الفصل في قرار الاستنكاف .

لا شك ان الموقع الاجتماعي لتوفيق عواد قدم له بديلا مغريا عن الصراع بالكلمة ضد اعدائها وتجارها . وفي تصوري ان توفيق عواد لم يحترس من غناء الجنيات كما فعل اوليس ، فلا هو اصم اذنيه عن الاصوات الساحرة المنبعثة من الجزر المعزولة ، ولا شد نفسه

(2) نقول ربما ، لاننا لا نملك بعد تاريخا للفنون الادبية على نطاق قومي .

(3) صدرت عن دار المكشوف عام 1964 .

(4) من ديوان قوافل الزمان الصادر عام 1974 .

(1) صدرت عام 1936 .

الى سارية سفينة ميناؤها محدد وطريقها صريح ليحييه الوثاق  
اذا استسلمت الارادة . والذي تسحره الجنيات يطول غيابه وتطول  
غيوبه اقلامه .. لكنه يعود .. سألته وقد اختار ان يملأ بالحوار  
بعض يومه الاخير في لبنان قبل سفره :

– ما سر فترة الصمت التي امتدت بين « الرغيف » و« السائح  
والترجمان » وقد قاربت ربع قرن ..

– ذلك سؤال طرحه عليّ الكثيرون وطرحته على نفسي مرارا «  
ولم ازل وليس بامكاني ان اناجيب عنه بوضوح فان الابهام يكتنفه  
من كل جانب لسبب بسيط .. انه مثل بالحياتة ، حياتي ، وحياتة  
من حوالي . والحياتة ابهام ان لاح فيه برق من وقت الى اخر  
فالضباب هو السائد .. ولكنني اعتقد انها فترة من كفر بي بقيم  
الفكر اطلاقا . على اثر ازمة اثابنتي في سني الحرب الاخيرة تم  
امتدت بي حتى ابعثني عن الجو الذي الفتة في مطلع شبابي - اي  
جو الكتابة - الى جو اخر هو الحياتة البسيطة ، انصرفت اليها  
بكل جوارحي استمتع بها بعيدا عن الحياتة التي يخلقها الفن.  
وكنت في هذه الفترة مخلصا بين نفسي وبين الناس عنما كنت  
اصرح لهم انني ( انتهيت ) كما تقول الاغنية القديمة « انا هويت  
وانتهيت » وانني لن اعود الى الادب ابدا .

فاذا بالبركان ينفجر فجأة ذات يوم على غير وعي مني فكان  
« السائح والترجمان » وقد وصفه النقاد بالفعل انه انفجار بركان  
ثم كانت لي « طواحين بيروت » وبعدها « قوافل الزمان » فانا  
الان في الجو الذي كان لي عهد « الصبي الاعرج » و« قهص  
الصوف » و« الرغيف » . واحس من نفسي عودة الى الشباب .

حين تأملت الاجابة ، لم استطع الموافقة على ما قاله النقاد في  
« السائح والترجمان » .. فالحوارية كانت حوارا جماليا مع اللفظة  
اكثر منها تجسيدا لحركة او تجسيما لحدث درامي يكثف صراعا  
بين قوى وافكار اجتماعية .. لقد صيغت من مادة فكرية جمالية ،  
ترتدي ثوبا شعريا فائق الاناقة جميل النممة ..

انها تعبر عن مفهوم شبه صوفي لوحدة الوجود والدعوى  
الرسولية للاخوة الانسانية ، وانشاد حلم السلام بين الامم والشعوب .  
الجماعات والافراد الموحد المالح . بهذه الرؤيا يبني عواد هيكل  
للحُب بين البشر على اساس « السلام بين الانسان ونفسه » كأساس  
للسلام العالي والاخوة الانسانية ، وبهذه الرؤيا المثالية الجمالية  
تدور كؤوس المحبة على الجميع .

« في وحدة للوجود

لا تعرف السدود

ولا الحدود

موصولة الاجيال

مشدودة الامال

مربوطة الاجال

بالخلود ! »

( ص ١٤٧ )

وبذلك يستعيد الانسان الوهيته المستلبة التي « انشطرت عنه  
وعنها انشطر » .

حين عدت اطالع رؤيا الكاتب لم ار لها وبراكين . قلت انها  
الرجة الاولى التي زارها ربيع الكلمة بعد شتاء طويل تمدد  
وتطى على مدى ربع قرن من الصمت . اما البركان فقد انتظر لثاني  
سنوات اخرى حتى تفجر في « طواحين بيروت » (١) .

(١) صدرت عام ١٩٧٢ عن دار الاداب .

اما الحلم الورد الذي تردد في « السائح والترجمان » فقد ذكرني  
بكلمات برتولد برشت في قصيدته « انتم يا من ستولدون » :

« صدفة انسي ما زلت احيا

نفسى تشتاق الى ان اكون حكيما

الكتب القديمة تصف لنا من هو الحكيم ؟

هو الذي يعيش بعيدا

عن منازعات هذه الدنيا

يقضي عمره القصير

بلا خوف او قلق

الغضب يتجنبه

والشر يقابله بالخير

الحكمة في ان ينسى المرء رغائبه

بدل ان يعمل على تحقيقها !!

غير اني لا اقدر على شيء من هذا

حقا ... انني اعيش في زمن اسود .. »

ان حوارية « السائح والترجمان » هي حلم الهارب من جور  
الواقع ورواية « طواحين بيروت » هي العودة والتذكر ، الجابهة  
والانفجار ، هي الذكرى التي تهردت على النسيان وعادت لتحكي  
ربما عن سر الهرب الاصلي ...

### كيف رأى توفيق عواد بيروت ؟

راها بالعين التي فاجأ بولس الرسول بها « روما » فتكشفت  
له عن مدينة تضاجع ملوك الارض السبعة فساطها بسياط برقه  
ورعدته . بيروت هي مدينة التجارة والتتجير فرا عليها من الرواومين  
الاسام عنوانها الكبير « برسم الاجار » فاستنزل عليها لمنسة  
« الزيت والكبريت » والهواء الاصفر . طلب النار والدمار لمدينة  
تتعامل مع النفوس البشرية وكانها شقق خالية . اما البراةة  
المستباحة فانها في غمرة ياسها تحلم « بقبلة ذرية تنسف  
الكون لتمد روح الله ترف على وجه القمر » .

هنا يتعمق الحس بالبراةة المفقودة والعطرية المسفوحة على عتبة  
المنية - المسلخ .. تميمه الطالبة المنجذبة كالغراشة من قرية  
« المهديّة » الجنوبية الى قنديل الافكار المتوجع في مدينة ما مدت ان  
الفكر فيها يباع والافلام توجر ان يدفع الثمن الاعلى ؟ تميمه هذه  
تحترق اجنحة حلمها في قنديل يحرق ولا يضيء . وزنوب الخادمة  
تذهب ضحية الست روز القوادة وزبائنها ، تحبل ثم تنتحر .. اكرم  
بك الجردى وشوكت بك اليفموري زعيمان سياسيان مناضلان ولكن  
« من اجل رفع عمارة كالمارة » . « وكلاء الله على الارض » يتاجرون  
بالتعصب . ورمزي رعد الصحفي الناري الكلمات المستاجر في بيت  
الست روز والمستاجر يفترس تميمه ، يتوجع على مصير زنوب ،  
وفي لحظة صحوه تتداعي خواطره تلف المدينة بالسنة اللهب :

« ايها الكتاب العظيم ، والشعراء الخالون ، بنات افكاركم،

بنات افكاركم ترى من تضاجع بناتي الحلوات في هذا الليل » .

بيروت التي يرسمها توفيق عواد صورة لا تساوم على الصدق .  
ومهما كان الصدق موجعا فهو المفضل على خدر الوهم واحلام  
التمني . ولكن السؤال يفرض نفسه . ما هي امكانات التجاوز؟  
من هو الجنين الذي ينبض في « عمة الرحم .. » الضوء الكاشف  
عند الكاتب ينزلق بسرعة عن الجسم الطلابي الذي يبدو ممزقا  
بين شتى المناخات الثقافية والجامعية المتناقضة وينزلق عن  
الجنوبيين الذين يلويهم الامم العدوان ، ينزلق بسرعة اكثر عن العمال

الذين يقفون في الظل . يتراءى لي ان توفيق عواد حين شاهد هذه القطاعات الاجتماعية الوسيعة الواعدة كان يمسك بالنظارات من الناحية الخطأ فبدت جد بعيدة ومصغرة .. كما ان المعلومات عنها تبدو معلقة بواسطة الصحافة الاخبارية ، وليست مأخوذة من الواقع الحي ومن موقع الاخلاط والنماذج العميم معها وبها .. اصارح الاستاذ عواد بان الكثير من الحقائق التي تعرضها رواية « طواحين بيروت » عن القطاعات الشعبية تبدو مستنفدة وعائمة على مستوى الخبر الصحفي ، وانها من نوع ال

### Second hand Knowledge

.. قال لي بصراحة انه كان في طوكيو عندما كتب الرواية .. وان استشهاده بمقاطع من الصحافة التي علقت على الاحداث الموصوفة كان احد انعكاسات المسافة المباعدة .

لاحظت اثناء قراءة الرواية ان البندقية الفدائية التي حملتها بطلته لم تكن اختيارا حرا يتسق مع نمو شخصيتها ، ولا يجيء كتصور حتمي لهذا النمو . وانما كان اختيارا املته الضرورة وفرضه اليأس .. حدثني عن منافذ الامل في الرواية ولم اكن ابحت عن منافذ الامل وانما كنت احاول قياس الزاوية الاجتماعية التي يطل منها على الواقع والتي تحدد في النهاية ابعاد الرؤيا وافاقها ..

سألته : - بطلته « طواحين بيروت » هربت من « فن » القرية الجنوبية لتسقط في « طواحين بيروت » . هل ترى بدىلا ثالثا بين الفن والطواحين ؟

اعجبته صيغة السؤال محمدا وواضحا ، فابتسم واجاب : « بين فن الهدية وطواحين بيروت ، هناك « دير المثل » . فهاني الراعي يمثل في سلوكه وافكاره واهدافه الطريق السوي المؤدي الى الخلاص . هاني الراعي اخذ الصالح من القديم والجديد ، لم يلتحق التحاقا وانما امسك القربال وموجه فخرج بترييب عاقل » .

اتذكر ذلك « الكف » الذي تلقته « تيممة » من هاني الراعي وهي تعترف له بعلاقتها القديمة مع رمزي رعد ، وهي تخلع عنها الماضي كما يخلع الثعبان جلده ، وهي تستشرف انقى الافساق وتتنشق من على شرفته نسيم الطهارة المقبلة .. ذلك « الكف » ليس هو من بقايا القديم التي علقت في « القربال » ليس التركيب العاقل هو المعادلة ازدواجية المهزقة ؟

اسأله : « انريد بطلا مزدوجا لا يعرف الانسجام مع النفس او الارتياح الى الفرح فوق فواصل الدين الهوومة وتقاليد الشرف والعفة المصونة ؟

الاستاذ عواد يوافق على انها ازدواجية ولكن المسألة كما يقول - عن حق - ليست فيما اذا كانت هذه الازدواجية صحية او غير صحية ، انما هي مرحلية وقائمة . وهاني الراعي مطالب بان يدقق النظر اكثر فاكتر لكي يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود ..

فهاني الراعي الشاب المسيحي وطالب الهندسة في اليسوعية، كان منذ بدء علاقته بتيممة الغناة الجنوبية المسلمة ، يتحسس الضغوط الاجتماعية التقليدية على قناعاته . ولكنه خلق هذه الضغوط ولم يترك لها فرصة التنفس في كلمات ... بقيت الضغوط تتراكم يشير اليها بغموض بين الحين والحين « سنختلف في اشياء كثيرة » يقول لتيممة ، ولكنه كان يقاوم بصعوبة متزايدة ، حتي كاشفته بعلاقتها برمزي رعد ، فعامت كل كوابته

الاجتماعية التقليدية وفجرها في هذه الصفحة . وحين صفحتها كان يصنع نفسه ايضا في الوقت الذي كان يصنع فيه حبيبته تيممة ... »

صمت الاستاذ توفيق . ولكن عقلي كان بعد يسأل ويجيب . هنا يسقط هاني الراعي وفي جب المرحلة بالتحديد .. يحاول النهوض متعثدا على مرفقيه ، اتخيله نصفه في الجب والنصف الاخر عائم .. مجرح ينزف الكثير من دماء رفضه وتمرده على تعصب بيئته وضيق افئها وفبرالية طوائفها . انه لم يتشكل ولم يتصلب ولم يدق بمطرق التجربة . انه باختصار ليس بطلا ، كما ان تيممة ليست بطلية ، والرواية تخلو تماما من عنصر التجاوز البطولي المأساوي والايجابي على حد سواء .. انه يريد انشاء حزب اسمه « حزب الاصحاب » وتيممة رفيقة له في الحزب . ولكن ليس لهذا الحزب اية هوية فكرية . بل هو كما يقول لي الاستاذ عواد « يبحث عن هوية فكرية ويفتش غير انه على ما يبدو لم يجد بعد الفكر الذي يتفحصه ويصفحه ضد القديم بالدرجة التي تكفي للملمة جراح رفيقته وحبيبته تيممة . زيارته للعجوزين في قريته « الطومين » ، كما يشر اليهما ابطال الرواية ، ترمز للاتصال بالقديم بشكل مجرد ، لان الرواية لا تقول لنا اي قديم ؟ او ماذا يمكن للطومين ان يقدموا لشاب مثل هاني الراعي . اوليست هذه العلاقة الروحية مع الطومين العجوزين في « دير المثل » من ضمن الروابط التي تشده الى الماضي بعيدا عن تيممة والمستقبل؟

اصارح الاستاذ عواد بانني لا ارى بطلا بأي مقياس . اعقد مقارنة بين ابطال روايته الاولى « الرغيف » المتناسكين في الرؤيا ، الثابتين على طريق هادف محدد ، المناضلين من اجل لقمة الفقراء الجائعين ، اراهم في الجبل اللبناني في ثياب « روبن هود » يشكلون العصابات المسلحة يسطون على الذين سرقوا واحتكروا الرغيف ، واراهم جنودا في جيش الثورة العربية ضد الاسراك .

اقارنهم بابطال « طواحين بيروت » فاحصل على مفارقة .. رؤيا الشخصيات الرئيسية في الرواية الاخيرة هيولية ومضطربة وان كانت لا تغفر الى التصميم على الوصول الى الوضوح .

الاستاذ توفيق لا يشاركني تفضيلي لرواية « الرغيف » لكنه يتسم ابسامة المفهم والمستدرك وهو يقول « كثيرون يشاركونك رايك .. ولكن الرحلة الحاضرة التي تناولتها في « طواحين بيروت » شديدة التقدم بالمقارنة مع مرحلة الحرب الاولى التي استقيت منها مادة « الرغيف » وهي مرحلة كان العدو فيها واضحا محمدا وكذلك الصديق . كان هناك التركي المستمر على ضفة والوطنيون اللبنانيون والعرب على الضفة المقابلة .. المسألة الان ليست بهذه البساطة .. »

( اتذكر خضم الالوان الثقافية والطائفية التي تعرض لها الرواية الاخيرة .. طوائف الاحزاب واحزاب الطوائف ، الجامعات والؤسسات المتضاربة الاتجاهات .. وارى بيروت مدينة الست روز .. مدينة الجرازين ذات العيون الماسية التي تبرق على الصدور المنهزمة ) . ادرك صعوبة العثور على البطولة . توفيق عواد يمسك بنا ، يدير وجهنا نحو المدينة معرأة من الاصباغ والازياء ، يقول : انظروا ، افي مثل هذا المناخ ينمو نبت البطولة ..

\*\*\*

« حلفت بصبح الوصل والصبح اشقر وربك واللائي بهسن تسيير تلفت تجذني خامس الركب انسي عليم باشياء السرور خبير ( من ديوان قوافل الزمان )

جو بيروت والحديث عنها يخففه لون البحر الذي لا يتصب  
من غسل شواطئها .

نتنقل الى اجواء أفرح .. اسأل الاستاذ عواد :

- رغم السواد الذي يكلل اوسع مساحات الرؤيا للواقف  
الموضوعي ، فاني ارى من خلال الرماد وميض فرح ذاتي ساطع لا  
شك انك عرفت كيف تقطفه ، ورغم اوجاع الحياة فانك ترفض  
الموت وتعتبره كما اقرأ في بعض قصائد البيتين عقابا يفوق حجم  
اكبر الخطايا . ما هي المقومات الوجودية التي زينت لك الحياة؟

- « اختصرها بكلمة : انها المحبة .. فانا انسان يشعر بوحدة  
الوجود ويستمتع من هذه الوحدة ببغلة فائقة . تضربني بشاعات  
الحياة حتى اذا لاحت ابتسامة على وجه نسيت البشاعات كلها .  
وتأخذني العواصف حتى اذا هبت بعدها نسمة غمدت بالنسيان  
اصداء العواصف ، وذلك سحر الحياة . هذه الوحدة سرت في  
تضاعيف قصائد كثيرة من ديوان « قوافل الزمان » .. اذكر لك منها  
القصيدة التي تحمل عنوان « حلم » وفيها اقول :

مدينة من بنات الفجر بيضاء

على الدروب وجوه لي مسلمة

من كل صوب وكل الناس اسماني «

والواقع ان هذه النظرة للحياة ليست نسيج حلم ليلة صيفوان  
كان قد يكون كذلك بالنسبة للآخرين .. انه بالنسبة لسي  
الحقيقة التي اعيشها مع الذين اعرفهم والذين لا اعرفهم مع  
اصدقائي ومع اعدائي على السواء . وهذا ما يشكل لي سعادة احس  
معا انني قريب من الله » ..

اتأمل اجابته : وحدة الوجود : الاعداء ، الله ، المفاهيم  
تستثير فضولي الفلسفي فاندفع الى منطقة الخطر :

- « وحدة الوجود » هل تعني بها المذهب الحلواني الرومانيكي؟  
« الله » علاقتك به مضطربة ترفضه ، تقبله ...

يرفع كفيه كأنه يريد وقف تدفق الاسئلة ادرك اني دخلت  
منطقة محظورة .. يقول :

- « انا انسان بسيط ولا احب الفلسفة ! »

حاولت الدخول محاذرا من ابواب جانبية . لكن حساسيته مرهفة  
اندرته ببديب الاقدام .. يقول لي : « معك المؤلفات وهي لك ،  
فاقرأ فيها اجاباتي .. »

تراجعت ... تذكرت انني اتعامل مع مؤلفات توفيق عواد  
كناقد هاو وليس كصحافي محترف ..

اقلب صفحات « السائح والترجمان » يطالعني في الصفحة  
الاولى مفهوم الانسان .. الذي خلق الاله على صورة رغائبه ومطامحه:  
« السائح

الالهة ! اين الالهة

النحات يمد يده الى جيبه فيخرج مطرقة وازميلا ويرميها على الارض  
في جيبه ( ص ٤٩ ) .

السائح آلهة كثيرة صنعت ؟

النحات عدد شهواتي وآمالي ومطامحي واحلامي . ( ص ٧١ )

ونقرأ الرفض العقلي للعقوبة التي نزلت بآدم وهو يحاول الوصول  
الى الالهية بالاكل من شجرة المعرفة :

« من اجل تفاحة يا رب تطردني

تفاحك المر ملء الارض الوانا

ان كان معصية في كل معرفة

سأكل الدهر عرفانا وعصيانا «

في قصيدة « صراخ هايل » تتردد اصداء الاحتجاج العقلاني  
على تجريم الانسان وهو بريء وعقابه وهو الذي لم يرتكب اثما  
وفي « ذنب وغفران » يقف امام الله الاسطوري بكامل قامته ليرفض  
من الاساس قواعد لعبة المحاكمة اليتافيزيقية :

« لا جنة ارتجى يا رب او سقرا

اخشى اذا انت يوم البعث ديان

حسبي وحسبك اني اذ تحاسنني

ذني الحياة وان الموت غفران «

وهو يمشي الى يوم الحشر ، على صدره علق الآثام اوسمة ،

يفاخر بها بكبرياء :

« لست ليوم الحشر ثوب وقاره

حياكة ايامي وتلوين احلامي

على الصدر ازراد له برفها دم

واوسمة بالحب تبرق آثامي «

الا ان هذه الكبرياء المتمردة وهذا الضفوان التسامق وهذا  
الاعتماد بانسانية الانسان لا يتخذ له مجرى ثابتا وانما يفور في  
تشققات الرؤيا التي تجزيه الانسان الى اله وحشرة . فالاله  
يتولد دائما من هذا الجزء الاخير .. ان الشاعر والروائي ينطلق  
في فهمه للانسان من جزئية اللحظة والموقف ولا يصل الى مرتبة  
اعلى من التجريد الذي يؤدي الى مفهوم علمي ينتظم الانسان في  
علاقته الصراعية الجدلية مع الطبيعة .

فالانسان تبعا لهذه النظرة التجزئية يعيش لحظات ومواقف .  
في لحظة الضعف والانقسام على الذات هو حشرة ، وفي موقف  
المسجوم مع ذاته هو اله . وحين يتحسس الشاعر دونية الانسان  
في مواقف الضعف يتجه بعينه الى السماء ليستنجد بالقوة التي  
صنعها الانسان من ضعفه ، من قوته المستلبة وماهيته العاجزة عن  
التحقق في الوجود المحسوس ...

في قصيدة « خبز الحق » يشكو الشاعر الى الله اجتناب  
الانسان لخبز الحق الذي يبيع اما في قصيدة « بابل » فان نعمته  
على الانسان وعلى ذاته الانسانية تنفجر دعاء الى رب السماء  
ليضرب بسيف النعمة رقاب العباد الكافرين .

« رب السماء هدمت قالوا بابلا

فارتد عنك السائل المتناول

هلا ضربت على المدى اعناقنا

في كل عنق من عبادك بابل «

هذه القصيدة تتعارض مع قصيدة « خلق جديد » على خطمستقيم:

« ربي اعرتك من نقصي الكمال ومن

موتي الخلود ومني كل ما وهبا

فاردد معاني وانفخ في من نفسي

ومن امانني عمر كونك الخريا «

وهذا المفهوم الاخير هو الذي يسود حوارية «السائح والترجمان»  
حيث الاشارة صريحة لانشطار الله عن الانسان . فاذا كانت قوة  
الله وكماله من صنع ضعف الانسان ونقصه فان التوجه الى الله

يتخذ طابع الرمز الشعري وليس المفهوم الميتافيزيقي التقليدي . اي ان الشاعر يوظف المفهوم السائد عن الله شعريا ليجسد رفضه للضعف البشر الذي منه تنبثق ثنائية المخلوق والخالق او « الطين والخزاف » كما يرمز اليها الشاعر في احدى قصائده :

« وفي النفس اضداد عفيف وفاجر

ضعيف وجبار بري ومجرم

انا الطين والخزاف افرع بعضها

بعض اباريقا اسوي واحطم »

من ثنائية « الضعف والقوة » المثالية هذه يصوغ القصاص والشاعر مفهومه المثالي الخاص للثورة .. انها « الثورة على النفس » وهو نفس مفهوم بطله « هاني الراعي » للثورة . والثورة على النفس لا توصل في اعتقادي .. الا الى الحياة الاخرى واخشى ان يكون هذا المفهوم للثورة هو في اساس غياب الرؤيا الاجتماعية المستقبلية الواضحة عن رواية « طواحين بيروت .. »

ولكن يسجل لتوفيق عواد انه لم يقفل باب البحث ولم يوح بنهاية الواقع المعطى وسيبحث دون ريب مع بطله الذي عاد يسأل عن تلك التي صفها وسيغامر مع بطلته التي تغامر في الليل حتى يطلع الفجر في رواية اخرى من واقع لا يبخل على المستقبل بوعده .

\*\*\*

الثنائية عنوان كبير لاوسع قطاعات مثقفي المرحلة وحساسيتي منها تدفعني للمزيد من السؤال عنها ..

استاذ توفيق ، استلغني في ديوان « قوافل الزمان » تجاذبان بين شعراء يمكن اعتبارهم اقطابا متنافرة .. فمن جهة تمشي في ركب ابن ابي ربيعة وتنتشي على قرع كؤوس ابي نواس ومن جهة اخرى تحمل تقطيعه جبين ابي العلاء وكل جديته ، تنام في عبوته وتكاد تناديه والذي .. كيف تحقق لك مثل هذا التواء ؟

يكر الجواب مصطحبا الابتسامة ...

انه تجاذب فني يقوم على الصعيد الفني . فكل جميل يجلبني بقطع النظر عن الفكرة بحد ذاتها ، عن طبع الكاتب ، عن نظره الى الكون . والجميل عند الشعراء الذين ذكرت كثير تحفل به دواوينهم واحفظ لهم منها منسد عهد الصبا ابيانا ارددها الى اليوم . وقد يناقض بعضها البعض في المعنى والهدف وهذا يسوقنا الى الشق الثاني ، اي المضمون ، والمضمون بحد ذاته عبارة عن مجموعة من المتناقضات كالتي تحفل بها الحياقواكون . ليست الحياة فرحا ، وترحا ، ضحكا وبكاء ، عرسا وجنازة ؟ ثم اليس الكون ، من حيث هو ، صيفا وشتاء ، هدوءا واضطرابا ، نورا وظلاما ونحن في النتيجة صورة مصفرة عنه ؟ فانا امرئد مع ابي نواس لانه يحسن العريفة ولان العريفة في داخلي سواء سمعها الناس ام غابت عن اسماعهم ، وانا اغامر مع ابن ابي ربيعة في الحب واسلك مسالكه الوعرة :

« حلفت بصبح الوصل والصبح اشقر

وربك واللاتي بهن تسيير

تلفت تجدني خامس الركب انسي

عليم باشياء السرور خبير »

اما ابو العلاء فهو المعبر الاكبر عن السواد الذي يكتنف نفسي كلما نظرت الى مصير الاشياء واردد الى اليوم بيتا له :

والارض للطوفان مشتاقه لعلها من درن تفسل

هذا التشاؤم الذي امتزج فيه مع ابي العلاء وامثاله ليس تشاؤما مطلقا ان صح هذا التعبير بل هو احتجاج على الشوايب لعل الطوفان يفسل الارض منها « ليبقى الجمال والخير والحب وحده » .

بقي يشغني سؤال : هذه الموهبة التي تفتحت على القصة والرواية وغيرها من الفنون ، من المواهب الكبيرة استشارها وحرصها لتفرض في ارضنا الرواية والقصة ؟

اساله : تقول في مقدمة « الصبي الاعرج » انك اذ تناول هذه الاشكال الجديدة فانما تشعر بانك تمد يدك الى مائدة انت مدعو اليها . من هم الذين وجهوا لك الدعوات الاولى الى مائدتهم ؟

دعني الى هذه المائدة الطاهية الكبرى ، جدتي في حكاياتها لنا ونحن صغار حول الموقد في الضيعة ، وتلاها ابي وكان محدثا بارعا يمسك الانفاس اذا روى خبرا او حكى نادرة ، يوزع الاضواء والظلال على الاشخاص ، ويعرف كيف يزعمهم وكيف يفرضهم وكيف يعرضهم على السامعين وكانهم يشاهدون مسرحية او فيلما سينمائيا ثم تآثرت بعد ذلك بابي الفرج الاصفهاني قبل ان اقرأ الروايتين الكبار .. وانا معجب منهم بنوع خاص بدستوفسكي واعده سيد من زاول هذا النوع الادبي في لغات العالم اطلاقا .

انسي كتبت قصصي ورواياتي الاولى بعفوية افتقدتها اليوم وكانت هذه القصص والروايات تنطلق على قلبي باشخاصها العديدة وحوادثها انطلاقا طبيعيا . لا اذكر انني عانيت في سبيل تسويتها عنتا او ارهاقا فكانها كانت مختزنة في داخلي ولك انت ان تفسر ذلك اذا شئت بما حفلت به طفولتي خلال الحرب العالمية الاولى وما اتيح لي بعد ذلك ان اعيشه من جو قروي قد زال اليوم اكثره مع الاسف ..

ولكني احس ان الاسف الحقيقي انه قد سكت لمدة ربع قرن ... ولا ادري لماذا يصعب عليّ وربما عليه غفران هذا الصمت ..

## دار الطليعة تقدم دراسات سياسية

\* كارل ماركس : تاريخ حياته ونضاله فرانز مهرنغ

\* مراسلات ماركس - أنغلز

\* ستالين : سيرة سياسية ( طبعة ثانية ) اسحق

دويتشر

\* التصور المادي للنظرية الماركسية كارل كورس

\* عشرة ايام هزت العالم ( طبعة ثالثة ) جون ريد

\* ماركسية تروتسكي مانديل ، كراشو ، ...

\* ماركسية ماوتسي تونغ شرام ، غارودي ، ...

\* النجم الاحمر فوق الصين : المراحل الاولى من

الثورة الصينية .. ادغار سنو

\* الثورة الثقافية البروليتارية في الصين جان دوبيه

\* نصوص حول الثورة الدائمة ماركس ، أنغلز ،

لينن ، تروتسكي

\* حول الحزب اللينيني ارنست مانديل

\* الفلاحون والثورة ( طبعة ثانية ) حمزة علوي

دار الطليعة - بيروت - ص ١١١٨١٣ ب